الدرر الحسان في وصايا الصحابة ومن تبعهم بإحسان

وصايا الخلفاء الراشدين في حياتهم وعلى فُرُش موتهم لجندهم وذويهم ولمن يهمهم أمره

إعداد أ.د. محمد عبد العليم الدسوقي
الأستاذ بجامعة الأزهر

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

وبعد: فالوصية بفعل الخيرات وترك المنكرات؛ وبالائتمار بمحاسن الأخلاق والانتهاء عن مساوئها، هي باب من أبواب التواصي بالحق والتواصي بالصبر الذي خص الله به عباده المؤمنين في قوله مُقْسِمًا على ذلك: «والعصر. إن الإنسان لفي خسر. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر» (سورة العصر)، ويأتي على رأس من تواصوا وأوصوا أقوامهم بهما: الأنبياء والمرسلون، ومن قبل ومن بعد؛ وصايا رب العزة بالتقوى للأولين والآخرين من عباده، والتي بحقها يقول ابن تيمية في الوصية الصغرى ص٧٣: «ما أعلم وصية أنفع من: وصية الله ورسوله لمن عقلها واتبعها، وهي قوله تعالى: «ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله» (النساء: ١٣١)، وعلى نحو ما وصىَّ بها الله عباده وأصفياءه، فقد وصىَّ النبي صلى الله عليه وسلم بها أصحابه وأحبابه .. ومن ذلك قوله لمعاذ - فيما أخرجه أحمد والترمذي والحاكم وصححه على شرط الشيخين -: (يا معاذ: اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحُها، وخالق الناس بخلق حسن)، وكان معاذ من النبي بمنزلة عليَّة، وكان كثيرًا ما يُردفه وراءه ويحادثه، ولا غرو فهو مَن قال له - كما في الأدب المفرد -: (يا معاذُ، والله إني لأحبك؛ ألا أعلمك كلمات تقولها في دُبر كل صلاتك: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك).

حاجة جيلنا إلى وصايا وحكم السابقين من الصحابة وتابعيهم:

ولَمَّا كان جيلنا - وشبابنا بخاصة - في مسيس الحاجة إلى الإفادة والعمل بوصايا القرون الخيِّرة؛ ونصائح الصحابة الكرام ومن تبعهم بإحسان، وكان النبي صلى الله عليه وسلم بمثابة الأب الناصح الأمين لجميع المؤمنين، لقوله تعالى: «النبي أولى بالمؤمنين

Upload by: altawhedmag.com

من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم» (الأحزاب: ٦)، ولما رواه مسلم في صحيحه (٢٦٥) وأبو داود في سننه من قوله صلى الله عليه وسلم: (إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم... الحديث)؛ أقول: لما كان الأمر كذلك؛ وكان النبي بهذه المثابة، وكان صلى الله عليه وسلم أحرص الناس على نفع أصحابه بوصاياه، وما انفك يعظ أصحابه بكل ما من شأنه أن يقوّي جانب الإيمان في نفوسهم، ويوصيهم - ضمن ما يوصيهم - بالتعلق بجناب الله ولزوم عبادته وطاعته، حتى جعل الوصية سنة في أصحابه وفي أمته من بعده .. كان لزاما علينا أن نتطرق لهذا الباب لنُفيد من تجارب السابقين ولنحيي ما كان عليه صلى الله عليه وسلم من الوصية لأصحابه، وليس أفضل في ذلك -بعد وصاياه بأبي هو وأمي- من وصايا الصحابة ومن تبعهم بإحسان.

فما الوصية إلا قول حكيم صادر من إنسان مجرّب خبير بالحياة وبطبائع البشر؛ يقدّم فيها المُوصِي خلاصة تجاربه الحياتية لمن يحب من أهله وذويه وأصدقائه؛ أو يقدمها الحاكم لأمرائه أو لشعبه أو لجنده، أو هي جملة من القول، يَقصد فيها المُوصِي إلى الترغيب فيما ينفع الناس من أمور معاشهم ومعادهم، والتنفير مما يضرهم.

وإن مما تتميز به الوصايا في الإسلام: أنها عادة ما تخرج كلماتها من القلب؛ فتُحدث أثرها في النفس بعد أن تقع في قلب المُوصِي وعقله، ومعلوم بالضرورة أن (الكلمة - كما جاء عن عامر بن عبد القيس - إذا خرجت من القلب وقعت في القلب)، كما أن كلام الموصين بوصاياهم عادة ما يخرج كالضوء يتلألأ لينير القلوب ويجلو صداها لتعود هذه القلوب كالمرآة المصقولة، ويتدفق في النفوس كتدفق أمواه النهر تسري؛ ساقية عطاشًا، لتُخرج نبتَها كريمًا باسقًا، الأصل ثابت والفرع في السماء، ويملأ جعبة من كان خالي الوفاض ليفيض من بعدُ على مَن وراءه.. وكم من الناس مَن اتبع فاستقام!

ليكن البدء بوصايا أبي بكر الصديق رضي الله عنه ت١٣هـ.

ومن قبلُ هذه نبذة مختصرة عنه رضي الله عنه:

هو عبد الله بن أبي قحافة عثمان التيمي القرشي، أول خليفة للمسلمين وأول الخلفاء الراشدين، وُلد في مكة وكان من أغنياء وأشراف قريش، وكان تاجرًا ناجحًا، عُرف قبل الإسلام بالتقوى والأخلاق الحسنة، ولم يَعبد الأصنام قط، وكان يهتم بمساعدة الفقراء والمستضعفين، وما أن سمعَ عن النبي دعوته للإسلام حتى استجاب وأسلم ودخل الإسلام بلا تردد، فكان أول من دخل في الإسلام من الرجال، صحب رسول الله في هجرته للمدينة، وكان رفيقه في الغار حيث كان «ثاني اثنين إذ هما في الغار» (التوبة: ٤٠)؛ وفي الهجرة إلى المدينة، وشهد معه جميع غزواته.

وتولى الخلافة بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم، وحارب المرتدين عن الإسلام، وفتح بلاد الشام والعراق، وبُدئ في عهده جمع القرآن الكريم .. ولقب بـ(الصديق) لتصديقه للنبي في حديث الإسراء والمعراج. وكان من أحب الناس إليه صلى الله عليه وسلم وأكثر الصحابة إيمانًا وزهدًا.

تولى الخلافة بعد أن بويع وعُهد إليه بها؛ وذلك عقب وفاة النبي صلى الله عليه وسلم. وخاض عقيب ذلك حروب الردة ضد القبائل التي ارتدت عن الإسلام، وتمكّن من إخضاع الجزيرة العربية بأكملها تحت الحكم الإسلامي، وبعد أن استتب له الأمر وجه

Upload by: altawhedmag.com

الجيوش لفتح العراق والشام، محققًا توسعًا كبيرًا للدولة الإسلامية، وفي عهده - وخوفًا على التنزيل من أن يموت حُفَّاظه- بدأ جمع القرآن بتدوينه في المصاحف بعد أن كان محفوظًا في الصدور؛ حيث ارتفعت نسبة الحفاظ في ذلك الوقت، وخُشي من ضياع التنزيل أو ذهاب أجزاء منه بعد موتهم. وكان أن توفي رضوان الله عليه في شهر جمادى الآخرة سنة ١٣هـ عن عمر يناهز الثلاثة والستين عامًا.

وصايا أبي بكر الصديق رضي الله عنه والدروس المستفادة منها:

١: وصيته لجيش أسامة بن زيد:

جاء فيها: «يا أيها الناس قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني: لا تخونوا، ولا تَغُلُّوا، ولا تغدروا، ولا تمثِّلوا، ولا تقتلوا طفلا صغيرًا أو شيخًا كبيرًا ولا امرأة، ولا تعقروا نخلًا ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرًا إلا لمأكلة، وسوف تمرُّون بأقوام قد فرَّغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرَّغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام؛ فإذا أكلتم منها شيئًا بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها، وتُلقون أقوامًا قد فحصوا أوساط رؤوسهم - جعلوها كأعشاش الطيور معلنين كفرهم وعنادهم - وتركوا حولها مثل العصائب؛ فأخفقوهم بالسيف خفقًا.. اندفعوا باسم الله".

وقال لأسامة: "اصنع ما أمرك به نبي الله صلى الله عليه وسلم، ابدأ ببلاد قضاعة ثم ائت آبلَ - إيلات الآن - ولا تُقصِّرن من شيء من أمر رسول الله، ولا تعجلنَّ لما خلفت عن عهده". وفيها: الالتزام التام بالأمر النبوي، وعدم التهاون في تنفيذ المهمة المكلَّف بها من قِبَل رسول الله؛ والتمسك بما عهد به إليه صلى الله عليه وسلم والتمهل في إنفاذه؛ والإصرار على تحقيق الهدف الاستراتيجي؛ وهو: إظهار قوة المسلمين وإخضاع القبائل للإسلام والقضاء على بؤر التمرد.

فكان أن سار أسامة وأوقع بقبائل من قضاعة التي ارتدت؛ وغنم وعاد، وكانت غيبته أربعين يومًا سوى مقامه ومنقلبه؛ راجعًا من غير أن يفقد أحدًا من رجاله، وكان إنفاذ جيش أسامة أعظم الأمور نفعًا للمسلمين؛ فإن العرب قالوا لو لم يكن بالمسلمين قوة؛ لما أرسلوا هذا الجيش؛ فكفُّوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوه. وكان صلى الله عليه وسلم قد جهَّز جيشًا بعد حجة الوداع وقبل وفاته، وأمَّر عليه أسامة بن زيد، وأمَره أن يوطئ خيله (آبل الزيت) في شمال الأردن من مشارف الشام؛ وكان ما ذكرنا.

٢-وصايا أبي بكر لقواد جنده الذين أعدهم لفتوح الشام:

عقب تولي أبي بكر الخلافة وإنفاذه جيش أسامة؛ جهَّز -رضي الله عنه- أربعة جيوش وجعل على أحدها: (عمرو بن العاص) ووجَّهه إلى فلسطين، وعلى الثاني: (شرحبيل بن حسنة) ووُجه إلى الأردن وأوساط الشام، وعلى الثالث: (يزيد بن أبي سفيان) ووجهه إلى البلقاء - وسط الأردن - وعلى الرابع: (أبا عبيدة عامر بن الجراح) ووجهه إلى حمص ثم لإمداد جيوش الشام، وشيَّع الأمراء ووصاهم.

أ- فكانت وصية أبي بكر لعمرو بن العاص وهو أول من سار من عُماله: «يا عمرو؛ اتق الله في سرِّ أمرك وعلانيته، واستحيه فإنه يراك ويرى عملك، وقد رأيتَ تقديمي إياك على من هو أقدم منك سابقةً؛ وأقدم حرمة؛ فكن من عُمال الآخرة، وأردْ بما تعمل وجه الله، وكن والدًا لمن معك، ولا تكشفن الناس

Upload by: altawhedmag.com

عن أستارهم واكتف بعلانيتهم، وكن مُجِدًا في أمرك، واصدق اللقاء إذا لاقيت ولا تجبن.. وإذا وَعَظْتَ أصحابك فأوجز، فإن كثير الكلام ينسي بعضه بعضًا، وأصلح نفسك تصلح لك رعيتك" انتهى باختصار في وصية له طويلة.

وتلك قواعد عظيمة في الدعوة والتعليم والتربية العسكرية؛ تؤكد على أن الإيجاز في الموعظة بجوامع الكلم وفي مثل هذه المواقف؛ يضمن حفظها وتركيز أثرها في النفوس.

وكان أن أمدَّ أبو بكر أبا عبيدة بجيش عليه عمرو بن العاص؛ فلما أراد الشخوص خرج معه أبو بكر رضي الله عنه يشيعه وقال موصيًا: «يا عمرو إنك ذو رأي وتجربة بالأمور وتبصرة بالحرب، وقد خرجتَ مع أشرف قومك، ورجال من صُلحاء المسلمين، وأنت قادم على إخوانك فلا تَألهم نصيحة، ولا تدّخرْ عنهم صالحَ مشورة؛ فرُبَّ رأي لك محمود في الحرب، مبارك في عواقب الأمور"، فقال له عمرو: "ما أخلقني أن أصدق ظنك وأن أقبَل رأيك!"، ثم ودَّعه وانصرف.

ب- وصية أبي بكر ليزيد بن أبي سفيان بن حرب: ثم دعا أبو بكر يزيدَ بن أبي سفيان فعقد له وأوصاه قائلًا: «يا يزيد، إني أوصيك بتقوى الله وطاعته، والإيثار له، والخوف منه، واذا لقيت العدو فاظفركم الله بهم، فلا تغلل ولا تمثل، ولا تغدر ولا تجبن، ولا تقتلوا وليدًا، ولا شيخًا كبيرًا ولا امرأة، ولا تحرقوا نخلًا ولا تعقره، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تعقروا بهيمة إلا لمأكلة. وستمرون بقوم في الصوامع، يزعمون أنهم حبسوا أنفسهم لله؛ فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له، وستجدون آخرين قد فحص الشيطان عن أوساط رءوسهم، حتى كأن أوساط رءوسهم أفاحيص القطا، فاضربوا ما فحصوا من رءوسهم بالسيوف، حتى يُنيبوا إلى الإسلام، أو يؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون، ولينصرن الله من ينصره ورسله بالغيب».

ثم أخذ يده فقال: «إني أستودعك الله وعليك سلام الله ورحمته»، ثم ودعه وقال: «إنك أول أمرائي، وقد وليتك على رجال من المسلمين أشراف غير أوزاع في الناس؛ فأحْسن صحبتهم، ولتكن لهم كنفًا، واخفض لهم جناحك وشاورهم في الأمر، أحسَن الله لك الصحابة وعلينا الخلافة».

وكان مما قاله له لما وجهه لفتح الشام: "إني وليتُك لأبلوك وأجرِّبك وأحرجك، فإن أحسنت رددتُك إلى عملك وزدتُك، وإن أسأت عزلتُك، فعليك بتقوى الله، فإنه يرى من باطنك مثل الذي من ظاهرك، وإن أولى الناس بالله أشدُهم توليًا له، وأقربُ الناس من الله أشدُهم تقربًا إليه بعمله، وقد وليتك عمل خالد - بن سعيد وكان أبو بكر قد ولاه قبله على الشام ثم عزله - فإياك وعيبة الجاهلية - كِبْرهم وفخرهم بالأنساب - فإن الله يبغضها ويبغض أهلها، وإذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم وابدأهم بالخير وعدهُم إياه، وإذا وعظتهم فأوجز فإن كثير الكلام يُنسي بعضه بعضًا، وأصلح نفسَك يصلح لك الناس. وصلِّ الصلوات لأوقاتها بإتمام ركوعها وسجودها والتخشع فيها.

واذا قدم عليك رسل عدوِّك فأكرمهم، وأقلل لُبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به، ولا ترينَّهم حقيقة جيشك فيَرَوا خيلك - أو خللك - ويعلموا علمك، وأنزلهم في ثروة عسكرك، وامنع مَنْ قِبَلك من محادثتهم، وكن أنت المتولي لكلامهم، ولا

Upload by: altawhedmag.com

تجعل سرك لعلانيتك فيختلط أمرك، وإذا استشرت فاصدق الحديث تُصْدَق المشورة، ولا تختزل عن المشير خبرك فتؤتى من قِبَل نفسك، واسمر بالليل في أصحابك تأتك الأخبار وتنكشف عنك الأستار.

وأكثر حرَسَكَ وبددهم في عسكرك، وأكثر مفاجأتهم في محارسهم بغير علم منهم بك، فمن وجدته غفل عن محرسه فأحسن أدبه وعاقبه في غير إفراط، وأعقب بينهم بالليل، واجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة فإنها أيسرهما لقربها من النهار، ولا تَخَف من عقوبة المستحق، ولا تَلجَنّ فيها، ولا تُسرع إليها، ولا تغفل عن أهل عسكرك فتفسدهم، ولا تتجسس عليهم فتفضحهم، ولا تكشف الناس عن أسرارهم واكتف بعلانيتهم.

ولا تجالس العبّاثين وجالس أهل الصدق والوفاء، وأصدق اللقاء ولا تجبن فيجبن الناس، واجتنب الغلول - الخيانة في المغنم - فإنه يقرّب الفقر ويدفع النصر، وستجدون أقوامًا حَبسوا أنفسهم في الصوامع فدعهم وما حبسوا أنفسهم له».

وهذه من أحسن الوصايا وأكثرها نفعًا لولاة الأمر، فإنه ذكر فيها واجبات القائد نحو جنده، ونحو عدوه، ومنع من تعرض القائد للمتدينين الذين حبسوا أنفسهم في الصوامع احترامًا لدينهم.

جـ - وصيته لشرحبيل بن حسنة:

كما وجّه الصديق شرحبيل بن حسنة - رضي الله عنهما - وودعه قائلًا: «يا شرحبيل، ألم تسمع وصيتي ليزيد بن أبي سفيان؟ قال: بلى، قال: فإني أوصيك بمثلها، وأوصيك بخصال أغفلت ذكرهن ليزيد: (أوصيك بالصلاة في وقتها، وبالصبر يوم البأس حتى تظفر أو تُقتَل، وبعيادة المرضى، وبحضور الجنائز، وذكر الله كثيرًا على كل حال)».

د- وصيته لأبي عبيدة بن الجراح:

ولما أراد أن يبعث أبا عبيدة بن الجراح؛ دعاه فودّعه ثم قال له: «اسمع سماع من يريد أن يفهم ما قيل له؛ ثم يعمل بما أمر به، إنك تخرج في أشراف الناس، وبيوتات العرب، وصلحاء المسلمين، وفرسان الجاهلية، كانوا يقاتلون إذ ذاك على الحمية، وهم اليوم يقاتلون على الحسبة والنية الحسنة، أحْسِن صحبة من صحبك، وليكن الناس عندك في الحق سواء، واستعن بالله وكفى بالله معينًا، وتوكل على الله وكفى بالله وكيلًا، اخرج من غد إن شاء الله».

فلما كان من الغد خرج أبو بكر يمشي في رجال من المسلمين، حتى أتى أبا عبيدة، فسار معه حتى بلغ ثنية الوداع، ثم قال حين أراد أن يفارقه: "يا أبا عبيدة، اعمل صالحًا، وعش مجاهدًا، وتوفَّ شهيدًا، يُعطك الله كتابك بيمينك، ولتقر عينك في دنياك وآخرتك، فوالله إني لأرجو أن تكون من التوابين الأوابين المخبتين الزاهدين في الدنيا، الراغبين في الآخرة، إن الله قد صنع بك خيرًا وساقه إليك؛ إذ جعلك تسير في جيش من المسلمين إلى عدُوّه من المشركين، فقاتل مَن كفر بالله وأشرك به، وعَبَدَ معه غيره» انتهى.

ويراجع في هذه الوصايا: (الكامل) لابن الأثير (فتوح الشام).

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

Upload by: altawhedmag.com